قال تعالى :

(الم تر ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الابصار) ..

النور / ٤٣ و ٤٤

تفصيل المعاني :

الم تر ان الله يزجي سحابا :

الاستفهام للتقرير ، والرؤية علمية ، والخطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكل من يصلح للخطاب ومعنى (**يزجي**) : يسوق برفق ،

والسحاب اصله البخار الذي تثيره ـ بتصريف الله ـ الرياح الساخنة فيتصاعد من البحار إلى طبقات الجو العالية ، حيث يرسل الله عليه الرياح الباردة لتكثيفه ، فيصير سحابا . والسحاب لفظه لفظ الواحد ومعناه الجمع

(ثم يؤلف بينه) :

اي يضم بعضه إلى بعض ، فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة .

(ثم يجعله ركاما) :

اي يلقي بعضه على بعض ، يقول العرب : ركم فلان الشيء يركمه إذا جمعه والقى بعضه على بعض فالشيء مركوم ، قال تعالى في وصف عناد المشركين ومكابرتهم حتى صاروا لا تنفع معهم حجة : **وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم)** الطور / ٤٤ .. ويقال : شيء ركام بوزن حطام اي مكدس بعضه على بعض والمراد انه سحاب كثير المطر .

(فترى الودق يخرج من خلاله)

الودق : المطر قليله وكثيره ، والخلال جمع خلل كجبال وجبل ، وهي المخارج التي تكون بين اجزاء السحاب وينساقط منها المطر . والمطر آية من آيات الله الدالة على وجوده وقدرته وفضله ، ومن اعظم نعمه على الانسان والحيوان .. فالحياة على الارض تقوم عليه ، إما مباشرة ، وإما بما ينشئه من جداول وانهار على سطح الارض او ينابيع وعيون وآبار من المياه الجوفية المتسربة منه إلى باطن الارض . فهو ينشيء في الارض الحياة .. ويوفر فيها الغذاء والثراء ، فالارض قبل نزول الماء عليها تكون في حالة همود . فاذا نزل عليها الماء تحركت حركة اهتزاز اثناء تشربها للماء ، وانتفخت ثم آتت بالنبات من كل صنف بهيج : **(وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج)** الحج / ٥ .. **(او لم يروا انا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تاكل منه انعامهم وانفسهم افلا يبصرون)** السجدة / ٢٧

وهو ماء طهور تتطهر به الأرض ، ويتطهر به الانسان ، ويشربه الأنعام والاناسي : **(وانزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا انعاما واناسى كثيرا)** الفرقان / ٤٨ و ٤٩ .

وكون الماء ينبت النبات في الارض امر يراه كل إنسان بوضوح وجلاء . والقرآن يخاطب الناس عامة بهذا الامر الظاهر ، حتى يسهل عليهم ـ بالتفكر فيه ـ معرفة الله بكل صفات الكمال ، والاحساس بحسن تدبيره لأمور خلقه. (واذا صحت النظرية التي تفترض أن سطح الأرض كان في فترة ملتهبا ، ثم صلبا لا توجد فيه التربة التي تنبت الزرع ثم تم ذلك بتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها إلى تربة لينة) .. اذا صحت هذه النظرية يكون المطر من

العوامل التي جعلت ـ بتقدير الله ـ تربة الارض السطحية صالحة للإنبات .

والله تعالى ينزل المطر من السماء بقدر وميزان وحكمة وتدبير ، فلا يزيد المطر فيغرق ، الا حين يجعله الله انتقاما كطوفان نوح الذي تحدث عنه المولى جل شأنه بقوله : **(ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات الواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر)** القمر / ١١ ـ ١٤

وبقوله : **(مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا)** . نوح / ٢٥ .

وكالفيضانات المدمرة التي نسمع اخبارها ما بين حين وحين .. ولا يقل المطر ، فتجف الارض . وينقطع خيرها ، الا حين يجعل الله ذلك ابتلاء ، كما حدث في زمن يوسف عليه السلام من أمر السبع سنوات الشداد المجدبة التي تحدث عنها القرآن بقوله على لسان يوسف : **(ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ياكلن ماقدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون)** .. يوسف / ٤٨
وكما يحدث لبعض جهات الارض على مسيرة الازمان .

نعم : إن المطر في غير حالتي الانتقام والابتلاء ، يسوقه الله مقدرا موزونا، لا يزيد فيدمر ، ولا يقل فيكون الجدب والمحل ، وذلك حكمة الله وجميل تدبيره **(والذي نزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتا)** .. الزخرف / ١١ .
(وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون) .. المؤمنون / ١٨

(وينزل من السماء من جبال فيها من برد) :

فاعل التنزيل هو الله تعالى ، ومعنى **(من السماء)** اي من جهتها ، وقوله تعالى : **(من جبال فيها)** بدل من قوله : **(من السماء)** ، والمراد بالجبال قطع السحاب الكبيرة المتراكم بعضها فوق بعض في طبقات الجو كالجبال الضخمة الكثيفة .. والبرد : هو القطع الصغيرة من الماء المتجمد لشدة برودته . والمعنى : وينزل الله من قطع السحاب الكبيرة المتراكمة بعضها فوق بعض كالجبال في طبقات الجو قطعا صغيرة من الماء المتجمد .

قال الشهيد (سيد قطب) في كتابه (في ظلال القرآن) : « ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب ، او تسير بينها . فاذا المشهد مشهد الجبال حقا بضخامتها ومساقطها ، وارتفاعاتها وانخفاضاتها وانه لتعبير محسور للحقيقة التي لم يرها الناس الا بعد ما ركبوا الطائرات » .

وقال الاستاذ المودودي في كتابه (تفسير سورة النور) : المراد بالجبال السحب المتجمدة لشدة البرد عبر عنها بجبال السماء على سبيل المجاز ، او هي جبال الارض لارتفاعها في السماء ، فان الهواء طالما يبرد بما يكون على

قممها من الثلج حتى يجمد السحب ، ويسبب نزول المطر في صورة البرد .

(فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء) :

اي : ينزل الله تعالى البرد ، فيصيب به من يشاء في زرعه وثمره وحيوانه ، فهو يضر بأغصان الاشجار ، ويدمر مزارع الحقول ، ويقتل الحيوانات وهي ترعى .. ويصرفه عمن يشاء من عباده رحمة منه وفضلا .

(يكاد سنا برقه يذهب بالابصار) :

السنا : الضوء الشديد ، والبرق : هو اللمعان الذي يشاهد — بين لحظة واخرى — في طبقات الجو العالية ، قبيل نزول المطر او البرد ، وهو يحدث من اصطكاك اجرام السحاب اثناء سيره فتتولد الشرارات الكهربائية التي تحدث ضوءا شديدا يكاد يخطف الابصار .. وهو ظاهرة كونية خلقها الله ، وجعل لها خصائصها ومميزاتها ، والناس حين يرونه تضطرب مشاعرهم بين الخوف والرجاء .. يخافونه لانه بطبيعته يهز الاعصاب ، ولانه قد يتحول الى صواعق مدمرة ، ولانه قد يكون نذير سيل جارف .. ويرجونه ويطمعون في خيره ، لانه قد يكون بشير مطر مدرار يحي موات الارض ، ويجري الانهار بالماء الفرات الطهور : **(هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشيء السحاب الثقال)** .. الرعد / ١٢ . ومعنى **(يذهب بالابصار)** : يذهبها ، كقوله تعالى : **(فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم)** .. البقرة / ١٧ اى : اذهب الله نورهم .

وكلما حدث البرق استخلصت الشرارة الكهربائية التي تقع في الجو النتروجين — الازوت — الصالح للذوبان في الماء ،ويسقط مع المطر ليمنح الخصوبة للارض . وقد علم الانسان تلك الحقيقة فاصبح يصنع السماد بنفس الطريقة التي تعلمها من قوانين الكون ، وهو السماد الذي يتوقف عليه وجود النبات في الارض .

(يقلب الله الليل والنهار) :

تقليب الليل والنهار : تغيير احوالهما ، والاتيان بكل منهما بدل الاخر ، فبين الليل والنهار خلاف في الأحوال ، وكل منهما يخلف الآخر .

ففي الليل ظلمة وفي النهار نور ، وفي الليل تنقطع الحركة وينام الناس وكثير من الحيوان والطيور والهوام ، وفي النهار تنبعث الحركة وتدب الحياة ، فالناس في ليلهم نائمون لا يحسون ولا يشعرون ، وذلك هو الموت الصغير الذي ينشرون منه حين يشرق النهار : **(وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا)** .. الفرقان / ٤٧

(او لم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) .. النمل / ٨٦

ونقل القرطبي في تفسيره عن النقاش في معنى (يقلب الله الليل والنهار)

قوله : هو تغيير النهار بظلمة السحاب مره وبضوء الشمس اخرى ، وتغيير الليل بظلمة السحاب مرة وبضوء القمر أخرى .

ومن المخالفة بين الليل والنهار يعلم الناس عدد السنين ، ويعلمون حساب المواعيد والفصول : (**وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب**) .. الاسراء / ١٢ .

وكل من الليل والنهار يخلف صاحبه ، ولولا ان جعلهما الله كذلك ما امكنت الحياة ، اذ لو كان الدهر كله نهارا او كله ليلا لانعدمت الحياة على وجه الارض، بل انه لو كان الليل او النهار اطول مما هو عليه الآن بضع مرات لاحرقت الشمس كل نبات ، ولتجمد في الليل كل نبات ، وعندئذ تستحيل الحياة .. فالليل والنهار — بهذا الوضع الذي خلقهما الله عليه — آيتان ماثلتان أمام الانسان ، تفصحان عن قدرة الله ، وعظيم تدبيره ، وبالغ فضله على عباده .. وفيهما الدليل الكافي لمن اراد ان يعرف خالقه بكامل صفاته ، او اراد ان يشكره على جليل نعمائه : (**وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد أن يذكر او اراد شكورا**) .. الفرقان / ٦٢

(إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) :

اي : ان في سوق الله للسحاب ، والتأليف بينه ، وجعله قطعا يتراكم بعضها فوق بعض . وانزال المطر من مخارج السحاب ، وانزال البرد من السحاب المتراكم في طبقات الجو كالجبال ، ليصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء وايجاد البرق خوفا وطمعا ، وتقليب الليل والنهار .. ان في ذلك كله لعبرة وعظة لاولي الابصار الذين لهم قلوب تفقه ، وعقول تفكر . لا ابصار الغافلين الذين لهم قلوب لا يفقهون بها الحق ، واعين لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر اعتبار ، وآذان لا يسمعون بها الآيات سماع تدبر واتعاظ .. فان هؤلاء لا يصلون الى موضع العبرة كما أشار اليه المولى جل شأنه في قوله : (**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**) .. الاعراف / ١٧٩

المعنى الاجمالى :

كان من رحمة الله بعباده ان جعل لهم في المشاهد الكونية آيات واضحات الدلالة على وجوده ووحدانيته وقدرته القاهرة ، وصنعه المتقن ، وفضله العميم . ايقاظا لعقولهم ، وتنبيها لوجدانهم ، حتى يعرفوا ربهم ، ويأنسوا بهدايته ، ويطمئنوا بنوره .

وقد عرض الله في الآيتين السابقتين مشهدا للكون ، ومن فيه ، وما فيه ، من خلق الله ،على اختلاف الطبائع والصور والاشكال ، والكل يتوجه الى الله بالتسبيح والتحميد ، ليوقظ بذلك حس الإنسان ، الذي ميزه الله بالعقل ،

واحاطه بجميع النعم ، وسخر له ما في السموات وما في الارض ، فكان حريا به أن يكون في قمة المسبحين ، وفي اعلى درجات الطائعين ، **لا أن يشذ** وينفرد عن الكون المسبح ، بالإعراض عن الله ، والابتعاد عن ذكره وتسبيحه.

وفي هذه الآيات يعرض الله مشهد السحاب في السماء ، وكيف يتكون ، وكيف يحدث البرق بنوره الذي يكاد يذهب الابصار ، وكيف ينزل المطر والبرد من خلال السحاب ، ومشهد تقليب الليل والنهار .

فقد بين سبحانه وتعالى أن قدرته تسوق السحاب سوقا رفيقا ، ثم تضم بعضه الى بعض لتجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة ، وتجعل بعض السحاب فوق بعض ، فيبدو كالجبال مسخرة بين السماء والأرض ، تقلها الرياح وتنقلها حيث يريد الله ان ينزل من مخارجها المطر ، الذي تقوم به الحياة على وجه الارض نباتا بهيجا ، وثمرا يانعا : **(وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات)** .. الاعراف / ٥٧ ..

وحيث ينزل الله البرد فيصيب به من يشاء من عباده ، فيتلف زرعه وثمره ، وحيوانه وسكنه ، ويصرفه عمن يشاء رحمة منه وفضلا .. وحيث يرى عباده البرق نذير سوء ، او بشير رحمة .. وكل ذلك صنع الله القادر الذي لا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء .

وتلك الحقيقة :

(حقيقة سوق الله للسحاب ، والتأليف بينه ، وتكديس بعضه فوق بعض في طبقات الجو ، وأنزال المطر من مخارج السحاب وإنزال القطع الثلجية الصغيرة من قطع السحاب الكبيرة ، وإحداث البرق بضوئه الشديد) لا ينقص من قدرها ولا يقلل من دلالتها على قدرة الله ، إن ماء المطر اصله البخار المتصاعد من البحار ، المتكاثف في اجواز الفضاء . فإن الله تعالى هو الذي انشأ الارض، وجعل فيها الماء ، وجعل للماء خاصية التبخر بالحرارة ، وخاصية الارتفاع ، وخاصية التكثيف في طبقات الجو ، وهو الذي يرسل الرياح الحارة والرياح الباردة ، وهو الذي جعل البخار المتكثف مشحونا بالكهرباء ، وكل العوامل التي تعمل لنزول الماء من السحاب هي من صنع الحكيم الخبير .

كما بين سبحانه انه يقلب الليل والنهار ، فيجعل الليل سكنا والنهار حركة .. الليل ظلاما والنهار نورا ويجعل كلا منهما يخلف الآخر ، بنظام لا يختل ولا يفتر ، لتستمد الحياة من الموازنة بين خصائصهما وجودها وقوتها وزادها وخيرها .

وفي هذين المشهدين الكونيين دلالة لأهل البصائر والعقول على وجود الله ووحدانيته وقدرته ، كما فيهما بيان لجزء من النعم العظيمة التي ينعم الله بها على عباده ، والتي لا يستطيع الإنعام بها سواه ، وصدق الله : **(إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار)** .